أسلوب القسم في القرآن الكريم

للدكتور: ناصر عبدالله أبو راس

بسم الله الرحمن الرحيم

لك الحمد على ما أنعمت، ولك الشكر على ما أسديت، وعلى محمد رسولك الأمين ناقل شرعك، وحامل رسالتك، أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ولصحابته الأكرمين أعلام الهدى رضوانك يارب العالمين.

أما بعد،

فإن الاستعداد النفسي لتقبل الحق وانقياده لنوره، يختلف من شخص إلى آخر. فالإنسان إذا كانت نفسه صافية نقية يكتفي باللمحة والإشارة في استجابته للحق وفتح قلبه لنوره. وأما إذا كانت نفسه قد تجمعت عليها سحابة الجهل، وغطتها ظلمة الباطل فلا تستجيب للحق والهدى، ولا يفتح قلبه لنوره إلا إذا أكد الكلام بأساليب التوكيد الشديدة الوقع على قلبه. فالقسم من أساليب التأكيد التي سلكها القرآن الكريم، ليؤكد للعالمين وجود الله ووحدانيته وقدرته الكاملة، وليثبت لهم معجزة رسوله ﷺ وحقيقة نبوته، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله.

مفهوم القسم وعلاقته بالعرب

القسم هو الحلف واليمين، وفعله أقسم. جاء في لسان العرب: أقسم

بالله واستقسم به وقاسم حلف له. وتقاسم القوم تحالفوا. وأقسمت أي حلفت، وأصله من القسامة. والقسم اليمين، والقسامة الجماعة يقسمون على الشيء أو يشهدون يمين القسامة[1] وجاء في مختار الصحاح: وأقسم حلف، وأصله من القسامة وهي الإيمان نقسم على الأولياء في الدم، والقسم بفتحتين اليمين وقاسمه حلف له[2] وجاء في المصباح المنير: قاسمته: حلفت له، والقسم بفتحتين: اسم من أقسم بالله إقساماً إذا حلف، والقسامة بالفتح: الإيمان نقسم على أولياء القتيل إذا ادعو الدم[3].

هذا عن مفهوم القسم عند أهل اللغة، وأما معناه اصطلاحا فهن عبارة عن ربط النفس بالامتناع عن شيء، أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً[4].

ويستعمل القسم عادة بين إنسان وآخر لدفع الشك عند المستمع منهما، لأن الأساس في القسم إن الإنسان إذا أقسم فإنه يحلف بشيء عظيم في نفسه ونفس السامع، ويكون القسم حينئذ لتثبيت ما يذهب إليه المقسم وتقريره في ذهن المخاطب، بغية تصديقه فيما يقول، وذلك أن السامع يعتقد أن القسم الذي فيه كذب وغش يؤدي إلى هلاك صحاب ذلك القسم.

وقد نشأ هذا الاعتقاد في البداية من ارتباط القسم بفكرة القداسة الدينية عند الناس في العصور القديمة؛ ولذلك كان المعبود هو أول ما يقسم به ويلتجأ إليه. وعلى هذا الأساس جاء الحلف أو القسم عند العرب في الجزيرة

---

(1) لسان العرب 2/ 381 مادة أقسم

(2) مختار الصحاح ص 535.

(3) المصباح المنير ص 691. وانظر كذلك ترتيب القاموس المحيط للشيخ الطاهر الزاوي. 3/ 621.

(4) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 291.

العربية[1].

وحيث أن القرآن الكريم نزل بلغة هؤلاء العرب، وعلى ما ألفوه من أساليبهم ليكون مفهوماً لديهم. ومن ثم فلا غرو أن يهتم القرآن الكريم بالقسم باعتباره من أحسن أساليب التأكيد العربية، ليؤكد للبشرية جمعاء أنه كتاب أنزله المولى عز وجل على رسوله محمد ﷺ. ليكون للعالمين نذيراً.

صيغة القسم وأدواته

الصيغة الأصلية للقسم هي: أن تبدأ بالفعل «أقسم أو أحلف» متعدياً بالباء إلى المقسم به، ثم يأتي المقسم عليه، وهو ما يسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[2] فتنقسم صيغة القسم على هذا الأساس إلى ثلاثة أقسام، أولاً: الفعل الذي يتعلق بالباء «أقسم أو أحلف». ثانياً: المقسم به. ثالثاً: المقسم عليه، وهو جواب القسم[3].

وقد اختصرت هذه الصيغة بسبب كثرة ورودها في الكلام حتى حذف فعل القسم منها واكتفى بالباء فقط، ثم عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[4] وعوض عن الباء بالتاء في لفظ اسم الجلالة، كقوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾[5] وقد ورد باء القسم

---

(1) روح القرآن الكريم تفسير جزء عم لعفيف طبارة ص 34، من علوم القرآن لفؤاد علي رضا ص 165.

(2) سورة النحل الآية 38.

(3) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 290.

(4) سورة الليل الآيات من 1 ـ 4.

(5) سورة الأنبياء الآية 57.

في القرآن عشرين مرة، وواو القسم اثنتين وخمسين مرة، وتاء القسم سبع مرات فقط[1].

وهذه الأحرف الثلاثة تسمى بأدوات القسم المشهورة. وهناك أدوات أخرى للقسم، وهي: لام القسم الذي يدل على التعجب مع القسم، «ومن» بكسر ميمه وضمها، ومن المستحسن اليوم عدم استعماله لغرابته[2]. وإذا كانت صيغة القسم تأتي لتأكيد جوابه فإن هناك بعض الأفعال تجري مجراه إذا كان سياق الكلام في معناه[3]، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾[4] لأن القسم والجملة بعدها جواب القسم، لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف، وحمل بعض المفسرين على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴿٨٤﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[7].

لماذا القسم في القرآن

وقد تساءل بعض الناس منذ القدم وقالوا: ما معنى القسم من الله؟ ولمن يكون؟ فإن القسم أن كان لأجل المؤمن الذي آمن بالقرآن الكريم، وبنبوة

---

(1) التبيان في أقسام القرآن لإبن قيم الجوزية ص 3.
(2) النحو الوافي لعباس حسن 2/ 441.
(3) البرهان في علوم القرآن للزركشي 3/ 45، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 297.
(4) سورة آل عمران الآية 187.
(5) سورة البقرة الآية 83.
(6) سورة البقرة الآية 84.
(7) سورة النور الآية 53.

محمد ﷺ، فإن المؤمن يصدق بمجرد الإخبار دون حاجة إلى القسم لتأكيدها. وإن كان القسم موجهاً لذلك الكافر فإن من كان كافراً ومصراً على كفره فإن هذا القسم لا يفيده في شيء.

وأجيب عن هذه التساؤلات من قبل بعض العلماء حيث قالوا: إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ومن عادتهم أن يقسموا إذا أرادوا تأكيد الخبر[1] وقال أبو القاسم القشيري: أن الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها، وذلك أن الحكم يفصل باثنين: أما بالشهادة وأما بالقسم. فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة[2].

وعلى كل حال فإن القرآن الكريم نزل باللغة العربية التي تمتاز بدقة التعبير، واختلاف الأساليب، وتنوع الأغراض، وأن لسامع الكلام حالات ثلاث بالنسبة لمضمون الخبر في هذه اللغة، وهي:

أولاً: إن المخاطب أو السامع قد يكون خالي الذهن من الحكم فيلقى إليه الخبر خالياً من أدوات التوكيد، ويسمى هذا النوع ابتدائياً.

ثانياً: وقد يكون السامع متردداً في ثبوت الحكم وعدمه، وفي هذه الحال يحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، وهذا الضرب يسمى طلبياً.

ثالثاً: قد يكون السامع منكراً لحكم الخبر، فيجب أن يؤكد له الخبر بقدر انكاره قوة وضعفاً. ويسمى هذا النوع إنكارياً[3].

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم

---

(1) من علوم القرآن لفؤاد علي رضا ص 165.
(2) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي 2/ 133، البرهان في علوم القرآن للزركشي 3/ 41.
(3) علم المعاني لعبد العزيز عتيق ص 55.

الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله تعالى يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة[1].

أنواع القسم في القرآن

تتنوع أقسام القرآن إلى نوعين[2] حسب الصيغ التي وردت في الآيات القرآنية، صريحة تارة، وخفية تارة أخرى، وذلك بقرينة واضحة تدل على ذلك.

أولاً: القسم الظاهر. وهو ما صرح فيه بفعل القسم والمقسم به، ويدخل في هذا من القسم أيضاً ما حذف فيه فعل القسم مع الاكتفاء بأدوات القسم، وهي أحرف القسم الثلاثة: الباء، والواو، والتاء. فمثال الأول قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[3] وقد ذكر في هذا القسم كل من فعل القسم والقسم به، فهو من القسم الظاهر.

وأما اللام التي هي في مقدمة الفعل فهي تحتمل عدة أوجه حسب آراء العلماء. منهم[4] من قال إنها نافية لمحذوف يناسب المقام. مثل: لا صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب. فأقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة أنكم ستبعثون. ومنهم[5] من قال: إنها للابتداء، وقيل: إنها زائدة[6].

---

(1) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 291، علوم التفسير لعبد الله شحاتة ص 128.

(2) البرهان 3/ 42، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن لابن القيم ص 173، الاتقان 2/ 134.

(3) سورة القيامة1، 2.

(4) معاني القرآن للفراء 3/ 207، تفسير ابن كثير 4/ 447، تفسير النسفى 4/ 313.

(5) المرجع السابق.

(6) معاني القرآن للفراء 3/ 207.

وعلى كل حال فإن القسم في هذه الآية يسمى ظاهراً لظهور فعله والمقسم به.

والمثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[1] وقد ذكرت في هذا الأقسام الأربعة إحدى الأدوات القسمية، وهي: واو القسم مع الأسماء المذكورة المقسم بها. ومن ثم تسمى بالأقسام الظاهرة.

ثانياً: القسم المضمر، وهو الذي لم يصرح فيه بفعل القسم، ولا المقسم به، وإنما ذكر فيه قرينة من القرائن التي تدل على حذفه.

ويمكن لنا أن نقسم هذا النوع من القسم إلى نوعين، على اختلاف القرائن الدالة على ذلك.

أ ـ القسم الذي تدل عليه اللام المؤكدة لجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[2] أي والله لتبلون في أموالكم وأنفسكم.

ب ـ القسم الذي يدل عليه المعنى. كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾[3]. تقديره ـ والله أعلم بالصواب ـ والله أن منكم ألاً واردها. وله في القرآن الكريم نظائره.

أنواع المقسم به في القرآن

ورد المقسم به في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع، وهي:

1 ـ قسمه جل جلاله بذاته الشريفة.

---

(1) سورة التين الآيات 1، 2، 3.

(2) آل عمران 186.

(3) سورة مريم الآية 71.

2 ـ قسمه تعالى بفعله.

3 ـ قسمه بمفعوله. وهو جميع مخلوقاته التي تدل على وجوده ووحدانيته وقدرته الكاملة.

أولاً: أقسم الله جل جلاله بذاته الشريفة في سبعة[1] مواضع من القرآن الكريم وهي: قوله تعالى: 1 ـ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2].

2 ـ وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[3].

3 ـ وقوله: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[4].

4 ـ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾[5].

5 ـ وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾[6].

6 ـ وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[7].

7 ـ وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[8].

ثانياً: وأقسم الله عز وجل بفعله[9] في كثير من الآيات القرآنية، مثل قوله

---

(1) البرهان للزركشي 3/ 40، الاتقان للسيوطي 2/ 133، مباحث في علوم القرآن للقطان 292.

(2) سورة التغابن الآية 7.

(3) الذاريات الآية 23.

(4) يونس الآية 53.

(5) مريم الآية 68.

(6) سورة الحجر الآية 92.

(7) سورة النساء الآية 64.

(8) سورة المعارج الآية 40.

(9) الاتقان للسيوطي 2/ 134.

تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾[1] وله أمثلة كثيرة في القرآن الكريم. وهذا على اعتبار أن «ما» في الآيات الكريمة مصدرية، بمعنى: والسماء وبنائها، والأرض وطحوها. وهلم جرّاً[2].

ثالثاً: وأقسم سبحانه وتعالى بمفعوله أيضاً في كثير من السور القرآنية. ونجد هذا النوع من المقسم به غالباً في أوائل بعض السور، كقوله تعالى: «والشمس» «والفجر» «والصافات» «والضحى» «والليل» وما إلى ذلك من الأمثلة الواردة في القرآن الكريم، وحتى أنه قد ورد القسم بالنبي ﷺ في القرآن الكريم، وهو أيضاً من هذا النوع، حيث قال: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٧٢﴾[3] ليعرف الناس عظمة النبي ﷺ عند ربه ومكانته لديه[4].

فإن قيل: كيف أقسم الله عز وجل بمخلوقاته، وقد ورد النهي علينا ألاّ نقسم بمخلوق؟ لقوله ﷺ: **«ألا أن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»**[5].

وقوله: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[6].

قيل: إن في ذلك ثلاثة أجوبة[7]: احدها: أنه على حذف مضاف، أي «ورب الفجر» «ورب الشمس»، وهلم جرّاً. الثاني: أن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها، فنزل القرآن على ما يعرفونه. والثالث: أن الإقسام إنما يجب أن يقسم الرجل بما يعظمه، أو بمن يجله، وهو فوقه والله تعالى

---

(1) سورة الشمس الآيات 4، 5، 6.
(2) فتح البيان لصديق خان 10/ 361، الألوسى 30/ 143.
(3) سورة الحجر الآية 72.
(4) البرهان 3/ 42، الاتقان 2/ 134.
(5) صحيح البخاري بهامش فتح الباري 14/ 336.
(6) الترمذي هامش عارضة الأحوزى 7/ 18.
(7) البرهان 3/ 41، 42، الاتقان 2/ 134.

ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه، وتارة بمصنوعاته، لأنها تدل على باريء وصانع.

وقد أجاب الحسن البصري أيضاً عن ذلك بقوله: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه، وليس لأحد أن يقسم إلا بالله».

وعلى كل حال فإن القسم بالمخلوقات لا يخرج عن وجهين كما قال أبو القاسم القشيري[1] إما الفضيلة، وأما المنفعة، فالفضيلة كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[2] والمنفعة كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾[3].

أنواع المقسم عليه في القرآن.

أقسم الله جل جلاله في القرآن الكريم على أصول الإيمان التي بنى عليها الإسلام، والتي يجب على الناس معرفتها وتصديقها، ويتمثل ذلك في الأنواع التالية[4]:

أولاً: القسم على التوحيد، وهو أصل من أصول الإيمان، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾[5].

ثانياً: القسم على أن القرآن حق منزل من عنده تعالى، وما كان للنبي أن يفتريه، أو أن يأتي به من عند غير الله، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

(1) المرجع السابق.
(2) سورة التين الآيتان 2، 3.
(3) سورة التين الآية 1.
(4) التبيان لإبن القيم من ص: 3 ـ 6، من علوم القرآن لفؤاد علي رضا 68 ـ 170، الاتقان 2/ 134، 135، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان 295.
(5) الصافات من 1 ـ 4.

اختلافاً كثيراً. ومثال ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[1].

ثالثاً: القسم على أن الرسول ﷺ بُعث بالحق، وأن رسالته حق، وأن ما جاء به من لدن عزيز حكيم. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[3].

رابعاً: القسم على الجزاء بالوعد والوعيد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾[4].

خامساً: «القسم على حال الإنسان التي يعلمها علم اليقين، حيث يقول جل من قائل: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾[5]، ويقول: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾[6]. ويقول: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾[7] وتقول: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾

---

(1) الواقعة من 75 ـ 77.
(2) سورة يس من 1 ـ 4.
(3) سورة النجم الآيات من 1 ـ 4.
(4) الذاريات من 1 ـ 6.
(5) الليل من 1 ـ 4.
(6) العاديات من 1 ـ 6.
(7) العصر 1، 2.

وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[1]، ويقول: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾[2].

حالات المقسم عليه في القرآن[3]:

يقصد بالقسم تأكيد ما يراد من جواب القسم، وإزالة الشك عن معناه إذا كان هذا الجواب ـ المقسم عليه جملة خبرية، أو يقصد بالقسم تحريك النفس وإثارة شعورها إذا كان الجواب ـ المقسم عليه ـ جملة إنشائية. ولكن الكلام هنا يقتصر على النوع الأول منها، لكونه أساساً في قسم القرآن. ويتطلب هذا النوع بعض الزيادات حسب الجمل:

أ ـ إن كان المقسم عليه جملة فعليه فعلها ماض متصرف مثبت، فالكثير الفصيح اقترانها «باللام» و «قد» معاً. ولا يجوز الاقتصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾[4] حذفت منه اللام لطول الكلام.

وإن كان الماضي غير متصرف فالكثير الفصيح اقترانه باللام فقط، نحو: والله لنعم المرء يبتعد عن الشبهات، إلا الفعل «ليس» فلا يقترن بشيء، مثل: والله ليست قيمة المرء بالأقوال، ولكن بالأفعال، وإن كان

---

(1) التين من 1 ـ 4.
(2) البلد من 1 ـ 4.
(3) انظر في هذا المبحث: النحو الوافي لعباس حسن 2/ 460 ـ 467، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 293، 294.
(4) سورة الشمس من 1 ـ 8.

الماضي غير مثبت لم يرد عليه شيء إلا حرف من حروف النفي الثلاثة التي يكثر دخولها على الجواب المنفي، وهي: ما ـ لا ـ إنْ ـ، نحو: والله ما مدحت أليماً، وعلى ذلك قس.

ب ـ وإن كان الجواب جملة مضارعية مثبتة فالأغلب الأقوى اقتران مضارعها باللام ونون التوكيد معاً، كقوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[1] ومن القليل الجائز الاقتصار على أحدهما.

ج ـ وإن كان المقسم عليه جملة إسمية مثبتة فالأحسن اقترانه بحرفين معاً، هما: «أنَّ» ولام الابتداء في خبرها، نحو: والله إن الغدر لأقبح الطباع. ويجوز الاقتصار على أحدهما أيضاً.

أما إذا كان المقسم عليه جملة إسمية منفية لم يرد عليه إلا أداة النفي في أوله، وهي: إحدى الحروف الثلاثة السالفة (ما ـ لا ـ إنْ) نحو: والله ما هذه الدنيا بدار قرار ـ بالله لا المال ولا الجاه بنافع إلا بسياج من الفضيلة ـ والله إنْ هذه الدنيا بدار قرار.

هذا وما يجدر ذكره هنا: أن المقسم عليه تارة يذكر، وتارة أخرى يحذف. وباعتبار أن ذكره أكثر[2] من حذفه. فإني سأعرض لحالات يحذف فيها وجوباً، وأخرى يحذف فيها جوازاً.

أولاً: حالات يحذف فيها المقسم عليه وجوباً.

أ ـ أن يتأخر القسم ويتقدم عليه جملة تغني عن جوابه ـ لدلالتها عليه ـ نحو: تسعد الأمة وتشقى بأبنائها والله.

ب ـ أن يحيط القسم جملة تغني عن جوابه، مثل: سعادة الأمة ـ والله ـ رهينة بعمل أبنائها.

---

(1) سورة النمل الآية 21.

(2) الاتقان 2/ 134.

ج ـ أن يجتمع أداتا شرط وقسم، ويتأخر القسم عن الشرط، فالجواب يكون للمتقدم. مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

ثانياً: ويحذف المقسم عليه جوازاً في غير الحالات السابقة لدليل، مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾[2] فجواب هذا القسم محذوف تقديره: إنك لمنذر، أو نحو هذا؛ بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ ومثله قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾[3] فالمقسم عليه محذوف تقديره: «إنك لمنذر»؛ بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾[4].

والأمثلة عديدة لهذا النوع من القسم القرآني.

علاقة القسم بالشرط

يستدعي كل من القسم والشرط في التراكيب جواباً خاصاً، يتميز بعلامة أو أكثر ينفرد بها دون الآخر. فجواب القسم مثلاً يختلف باختلاف نوعي القسم، وهو أولاً: القسم الاستعطافي الذي يكون جوابه جملة طلبية مشتملة على ما يثير الشعور والعاطفة، والآخر القسم غير الاستعطافي الذي يكون جوابه جملة خبرية يراد تأكيدها بالقسم.

وأما جواب الشرط الجازم فلا بد أن يكون مجزوماً، وذلك يكون إما

---

(1) سورة الحشر الآية 12.
(2) سورة ق الآية 1.
(3) سورة ص الآية 1.
(4) ص الآية 4.

لفظاً إذا كان الجواب فعلاً مضارعاً، وإما محلاً إذا كان الجواب فعلاً ماضياً، أو اقتران الجواب بـ «الفاء» أو «إذا» الفجائية[1]. ثم أن الشرط يتنوع إلى نوعين:

النوع الأول: الشرط الامتناعي، وهو: ما كانت أدواته: لو، لوما، لولا.

النوع الثاني: الشرط غير الامتناعي، وهو: ما كانت أدواته غير تلك التي سبق ذكرها.

هذا وقد يجتمع القسم والشرط معاً، ويؤدي ذلك إلى حذف جواب القسم أحياناً وإثباته أحياناً أخرى. وبيان ذلك في النقاط التالية:

أولاً: إذا اجتمع القسم والشرط غير الامتناعي يقتضي ذلك الاكتفاء بجواب واحد للمتقدم منهما، وأما جواب الآخر فيحذف لدلالة المذكور عليه[2].

مثل قوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾[3]. والتقدير: والله لئن لم تنته لأرجمنك. ويستثنى من هذه القاعدة حالتان:

أ ـ إذا اجتمع القسم المبدوء بالفاء والشرط غير الامتناعي وتأخر القسم عن الشرط يكون الجواب للقسم رغم تأخره عن الشرط. مثل قولنا: من يجتهد في دروسه فالله ينجحه نجاحاً باهراً.

ب ـ إذا اجتمع القسم والشرط غير الامتناعي، وتقدم عليهما ما يحتاج إلى خبر. مثل المبتدأ في الجمل. يكون الجواب للشرط مع تأخره عن القسم. مثل قولنا: «علي أن اجتهد والله ينجح».

---

(1) النحو الوافي 4/ 450.
(2) المرجع السابق 4/ 455، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان 296.
(3) سورة مريم الآية 46.

ثانياً: إذا اجتمع القسم والشرط الامتناعي يكون الجواب للشرط، سواء أكان متقدماً على القسم. أم متأخراً عنه. مثل قولنا: والله لولا رحمة الله بعباده لأهلكهم بذنوبهم. وقولنا: لولا الله ـ والله ـ ما اهتدينا[1].

ثالثاً: إذا اجتمعت جملة القسم والشرط قد تدخل اللام الموطئة على أداة الشرط، لتدل على أن الجملة المتأخرة المصدرة بلام أخرى هي جواب القسم[2]، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[3].

مقاصد القسم ومواطن العبرة فيه.

من المعلوم أن المولى عز وجل لا يقسم بشيء إلا وفيه موضع للعبرة، وموطن للعظة والذكرى، ومجال رحب للتأمل والنظر، وكان من ورائه مقصد يطلبه المتدبر، والعاقل المستبصر.

والقسم كأسلوب قرآني يتجه بأغراضه ومقاصده إلى المقسم به، وإلى القسم عليه. ومن الأغراض المتجهة إلى المقسم به ما يلي:

1 ـ تعظيم المقسم به وتقديسه.

يتجه الغرض في أسلوب القسم أحياناً إلى المقسم به من أجل تعظيمه وتقديسه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[4] فأقسم بالرب مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ تعظيماً للمقسم به، وتقديساً للرب

---

(1) التوضيح والتكميل شرح ابن عقيل 2/ 322.
(2) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان 296.
(3) سورة الحشر الآية 12.
(4) النساء الآية 65.

سبحانه وتعالى، فهو المربي والمعين، والمستحق لكل تعظيم، وهذا الغرض لا يجوز إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى.

2 ـ بيان أهمية المقسم به.

وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو الإهتمام بالمقسم به، كقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾[1] ذلك لأن القرآن بوصفه الكتاب المنزل المعجز المتحدى به، المشتمل على ما اشتمل عليه من تربية وتعلية واسعاد يستحق أن يهتم المتحدى به وبشأنه، فكان القسم به لبيان أهميته، وحتى يزيد به الاهتمام أكثر وصفه بالحكمة[2].

3 ـ بيان دور المقسم به.

وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو بيان دور المقسم به في دلالته على الهدف المقصود منه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾[3] وهكذا سائر الصور التي يكون المقسم به فيها أمراً كونياً فإنها تدل على هدفها برمز بيّن واضح. فظهور الشمس رمز على وضوح الهدى، وغشيان الليل رمز على ظلمة الكفر والضلال[4].

ولعل هذه الرمزية تتضح أكثر من جمع القرآن بين الشيئين المتقابلين حين يقسم لهما معاً، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝٣٤﴾[5] وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾[6] فإن هذا الجمع يدل على أن السنة جارية على أن الظلام مهما طال فلا بد أن يعقبه نور وضياء.

---

(1) سورة يس الآيتان 1، 2.
(2) روح القرآن الكريم لعفيف طباره تفسير جزء يس ص 8.
(3) سورة الليل الآيتان 1، 2.
(4) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور 30/ 368.
(5) المدثر الآيتان 33، 34.
(6) الضحى الآيتان، 1، 2.

4 ـ بيان آثار المقسم به.

وقد يكون الغرض من أسلوب القسم هو لفت الأنظار إلى ما في المقسم به من أثر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾[1] فإن المقسم به المتعدد في هذه الآيات يشير إلى مواطن النبوات، وأماكن ظهورها. يقول الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم[2] ما ملخصه: وبالجملة فإن التين والزيتون كنايتان عن مواضع ليتناسب جمعها مع طور سينين، هذا البلد الأمين. فأقسم الله تعالى بالتين للتذكير بأمر نوح وما أهلك الله به أهل الفجور والفساد، وأنجى الله المؤمنين الصالحين. وأقسم بالزيتون تعبيراً عن زمن تعمير الأرض بعد نوح. وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وظهور نور التوحيد في العالم، بعدما تدنست جوانب الأرض بالوثنية.

وأقسم بالبلد الأمين تنويهاً بقدر مكة خاصة بعد ظهور النور المحمدي.

وهكذا أقسم بهذه الأشياء إيضاحاً لآثارها الهامة، وإشارة إليها. ومع الأغراض العائدة على المقسم به، يوجد أغراض تعود على المقسم عليه، ومن أهمها ما يلي:

1 ـ تعظيم المقسم عليه.

قد يكون الغرض من أسلوب القسم تعظيم المقسم عليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾[3] فإن هذا القسم يفيد تعظيم المقسم عليه، وهو القرآن الكريم. يقول بعض المفسرين[4] عند تفسير كلمة «ولا أقسم» أن «لا» لنفي القسم.

---

(1) التين الآيات: 1، 2، 3.

(2) ص 90، 91.

(3) سورة الواقعة، الآيات: 75، 76، 77.

(4) فتح البيان لصديق خان 9/ 274.
التحرير والتنوير 27/ 330. روح المعاني للألوسي 27/ 152.

فكأن الله تعالى يقول: «لا أقسم بهذه الأشياء مع عظمها على إثبات المطلوب، فإن المطلوب أعظم وأجل من أن يقسم عليه، ويكون الغرض هو تعظيم المقسم عليه، وتفخيم شأنه، وإثبات أنه أحرى وأقوى من أن يمثل هذا القسم. وقد يدل النفي في «لا أقسم» على توكيد القسم لا نفيه؛ كما تقول لصاحبك موصياً إياه مؤكداً عليه الوصية. تقول: لا أواصيك بفلان، وأنت تريد توكيد الوصية به. وسواء أفادت الصيغة النفي أو التوكيد، فإنها تعظم القرآن الكريم وتقدره.

2 ـ ثبوت المقسم عليه.

وقد يكون الغرض من أسلوب القسم بيان ثبوت المقسم عليه، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾[1] فإن البعث من الحقائق التي تعرضت كثيراً للإنكار والشك، فأكد الله ثبوته بالمقسم عليه. وأقسم عز وجل على أن البعث حقيقة ثابتة مؤكدة[2].

3 ـ إبراز المقسم عليه في عالم الحس.

وقد يكون الغرض من أسلوبه القسم هو بيان تحقق المقسم عليه وإبرازه في عالم الحس، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾[3] فالله سبحانه أقسم بما هو مدرك حسّياً من تفاوت الليل والنهار، ومن التفاوت في المخلوقات بين ذكر وأنثى، توطئة إيضاحية لبيان تفاوت مماثل في سعي الناس في الدنيا بين هدى وضلال،

---

(1) سورة التغابن الآية 7.
(2) روح المعاني للألوسي 28/ 122.
(3) الليل الآيات من 1 ـ 4.

فمنهم من يعمل للجنة، ومنهم من يعمل للنار[1].

وجه المناسبة بين القسم به والمقسم عليه[2].

التناسب بين الآيات والسور ضرب من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فهو كتاب محكم النسيج، لا تجد فيه خللاً بين كلماته، ولا تنافر بين حروفه، ولا تناقض في معانيه ولا في مراميه، مع أنه نزل منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة، فانظر كيف رتبه الله ترتيباً فريداً غاية في الحسن والجمال والجلال والكمال، بهر العقول ببراعة نظمه، وسلاسة أسلوبه، ورقة تصويره، وروعة تعبيره، وعذوبة بيانه.

فإذا تأملنا مثلاً في آيات القسم وجدنا الصلة جد وثيقة بين المقسم به والمقسم عليه، وأدركنا أن بينهما تناسباً وثيقاً. فالقسم القرآني يقوم بتأثيراته في مخاطبيه بدقة رائعة، ذلك أن المولى عز وجل لا يقسم إلا بما هو معروف للمخاطب، لأنه كالدليل لما يقسم عليه، فناسب أن يقسم بالظاهر على الخفى، ولهذا كان المقسم به دائماً يلامسه البشر ويعرفونه، وحتى عندما يكون المقسم به مما ينكره المدعو نرى القسم يأتي بجانب مسلم فيما هو موضع الإنكار.

ونذكر توضيحاً لذلك بعض الأمثلة، منها قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾[3].

والمقسم به هنا نور وضاح متلألىء يعقبه الليل المظلم، فهما حالتان متقابلتان للزمان، والمقسم عليه بيان أن الله تعالى لم يترك النبي ﷺ ولم

---

(1) فتح البيان 10/ 367، روح القرآن لعفيف طبارة تفسير جزء عمّ ص 126.

(2) انظر في ذلك: الألوسي 30/ 154، 155، مناهل العرفان 1/ 216، 217. روح القرآن، تفسير جزء عم 130، 131.

(3) سورة الضحى الآيات، 1، 2، 3.

يبغضه، وإنما انقطع الوحي لحكمة أرادها الله تعالى. والمناسبة بينهما إن انقطاع الوحي فترة لا يعد ضرراً قط؛ لأن مجيء الوحي وانقطاعه حالتان صغيرتان لمجيء النور والظلمة. وطريقة التأثير هنا أن يقف المعارضون عند حد، ولا يتمادون في أكاذيبهم. فما انقطاع الوحي إلا لتهدئة فؤاد النبي ﷺ بعد أن ارتجف حين ضمه جبريل عليه السلام إليه لأول مرة. وبعد التهدئة يأتيه الوحي من جديد تماماً، لما هو معروف من أن انقطاع ضوء الضحى ليأتي ظلام الليل أو بالعكس له فائدة جليلة. فالليل للهدوء والسكينة، والنهار للحركة والنشاط، ولو كان الزمان كله نهاراً أو ليلاً لما سارت الأمور، ولتوقفت الحياة، فأقسم الله عز وجل بحالتين من حالات الزمن فائدتهما واضحة لتأكيد: أن يغير الوحي مع النبي ﷺ إلى حالتين، كان لما لهما من فائدة، والتصديق حينئذ يسهل، لأن التصديق بالمقسم به معروف حساً، والمقسم عليه يشبهه في التغير والفائدة معنى. فحُقَّ الإيمان والتصديق بمحتواه.

يقول الألوسي في هذا المضمار: كأن الله تعالى يقول: الزمان ساعة فساعة، ساعة ليل وساعة نهار، ثم يزداد، فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، ومرة بالعكس، . فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى، بل لحكمة. كذا الرسالة لإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال، ومرة حبس، فلا كان الإنزال عن هوى، ولا كان الحبس عن قلى. ا.هـ.

موقف المستشرقين من القسم القرآني[1]

إن خصوم الإسلام يحرصون كل الحرص على التشكيك في القرآن؛ لأنه قوام الدين وأصله الذي يعتمد عليه، فإذا ما اهتز هذا الأساس ولو هزة

---

(1) انظر في هذا المبحث: مناهل العرفان1 / من صفحة 213 ـ 218، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية لسان الحاج 2/ 435.

خفيفة تمايلت الأغصان وارتجفت، وتداعت الثمار للسقوط. وفي هذا الإطار يعمد المستشرقون إلى أسلوب التشكيك، وإثارة الشبهات، لتتزعزع عقيدة المسلم في دينه، فتضعف روح الإيمان وقوته في قلوب أهله، فيسهل إخضاعهم وإذلالهم. حيث قالوا: إن القرآن أقسم كثيراً بالأشياء الحسيَّة كالضحى، والليل، والتين، والزيتون وطور سينين، وكثير من المخلوقات.

ولا ريب أن القسم بمثل هذه الأمور يدل على تأثر القرآن بالبيئة في مكة، لأن القوم فيها كانوا أميين، ولاتعدو مداركهم حدود الحسيات. أما بعد الهجرة واتصال محمد بأهل المدينة وهم مثقفون مستنيرون فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقي الجديد، وخلا من القسم بتلك الأشياء الحسية الدالة على البساطة والسذاجة.

ويمكن الرد على هذه الشبهة بما يلي:

1 ـ إن أهل مكة ليسوا بسطاء أو سذجاً بحيث تكون مداركهم لا تعدو حدود الحسيات، بل كانوا أرقى ذوقاً، . وأعظم ذكاء من أهل المدنية، وأن الخطاب معهم كان ملحوظاً فيه استحاله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون والمتميزون في صناعة البيان، والتاريخ خير شاهد بامتياز العرب في مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن.

2 ـ إن القسم بالأمور الحسية في القرآن كالضحى والليل ليس ناشئاً عن انحطاط القوم كما زعم أعداء الإسلام، إنما منشؤه مراعاة مقتضى الحال فيما سبق القسم لأجله، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أفحش العقائد فيهم، وهي عقيدة الشرك، ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها، إلا بلغت عقولهم إلى ما في الكون من شؤون الله وخلق الله، وإلاّ بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده، ومادام هو الخالق وحده، لأنه لا يستحق العبادة عقلاً، إلا من كان له أثر الخلق في العالم فعلاً.

ومن ثم نلاحظ أن القرآن الكريم يحدث مرة عن خلق السماء والأرض، ومرة عن أنفسهم، وثالثة عن أنواع الحيوان والنبات والجماد، وتارة يختار طريقة القسم، لأن في القسم معنى العظمة التي أودعها الله في هذه النعم، دالة على توحيده وعظمته، حتى صح أن يدور القسم عليها.

3 ـ إن في مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسرار تنأى بها عن السذاجة والبساطة، وتشهد ببراعة المخاطبين بها وتفوقهم في الفهم والذكاء، والفصاحة والبلاغة والبيان، وذلك أن القسم بها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها، حتى صح أن يكون مقسماً بها. وإذا أردنا معرفة تلك الأسرار فعلينا أن نرجع إلى الوراء قليلاً في مبحث: مقاصد القسم ومواطن العبرة فيه، وفي المبحث الخاص: بوجه المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، ليتبين الحال، ولا يبقى لمثل هذه الشبهة مجال.

والله أعلى وأعلم وأعز وأكرم

والحمد لله أولاً وآخراً

مصادر مراجع البحث

1 ـ البرهان في علوم القرآن للزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مطبعة عيسى الحلبي الطبعة الأولى 1958.

2 ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم الجوزية. دار المعرفة، بيروت، لبنان.

3 ـ ترتيب القاموس المحيط للشيخ الطاهر الزاوي الدار العربية للكتاب، الطبعة الثالثة 1980م.

4 ـ تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور. الدار التونسية للنشر. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

5 ـ تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، طبعة دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبي وشركاه. القاهرة.

6 ـ تفسير النسفي. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان 1982م.

7 ـ تفسير جزء عمّ للشيخ محمد عبده، مطبعة الشعب. سلسلة كتاب الشعب. القاهرة.

8 ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

9 ـ التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل، تأليف محمد عبد العزيز النجار. مطبعة الفجالة الجديدة 1967م.

10 ـ روح القرآن الكريم، . لعفيف طبارة. منشورات جمعية الدعوة الإسلامية.

11 ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى. دار إحياء التراث العربي الطبعة الرابعة 1985م.

12 ـ صحيح البخاري بهامش الفتح. مطبعة مصطفى الحلبي 1959م.

13 ـ صحيح الترمذي بهامش عارضة الأحوزي، دار العلم للملايين.

14 ـ الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية لساسى الحاج. منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي 1991م.

15 ـ علم المعاني لعبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1985م.

16 ـ علوم التفسير لعبد الله شحاتة، مطبعة القاهرة 1986م.

17 ـ فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان، مطبعة العاصمة، شارع الفلكي، القاهرة، الناشر عبد المنجى محفوظ.

18 ـ الفوائد المشوقة الى علوم القرآن لابن القيم الجوزية. مكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

19 ـ لسان العرب لابن منظور.

20 ـ مباحث في علوم القرآن لمناع القطان. مؤسسة الرسالة الطبعة الثامنة 1981م.

21 ـ مختار الصحاح للإمام الرازي. طبعة الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1962م.

22 ـ المصباح المنير للفيومي، المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الثامنة.

23 ـ معاني القرآن للفراء، عالم الكتب الطبعة الثانية 1980م.

24 ـ مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني. دار إحياء التراث العربي.

25 ـ من علوم القرآن لفؤاد على رضا. دار إقرأ بيروت، لبنان. الطبعة الثالثة 1984م.

26 ـ النحو الوافي لعباس حسن، دار المعارف بمصر. الطبعة الثالثة.